عن عاشقٍ لفلسطين... من البرازيل: لقاء مع كارلوس لطّوف في شوارع بيروت*

يسري الأمير**

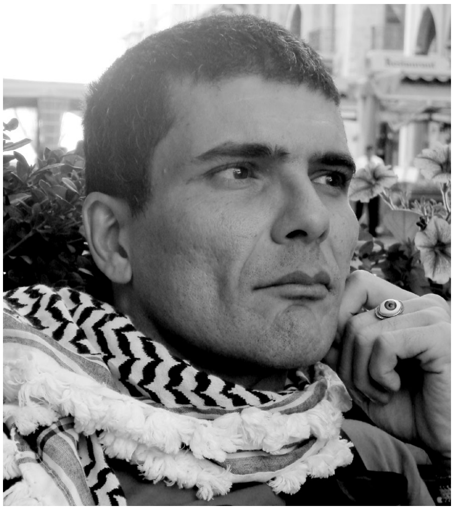

في الزمن الذي يحتاج فيه الفلسطينيُّ إلى «إذْنِ مهمّةٍ» من البلاطات العربيّة ليَخْرج في تظاهرة، ويحتاج إلى تقديم أسبابٍ مقْنعةٍ لبقائه على قيد الحياة، زار لبنانَ كارلوس لطّوف، رسّامُ الكاريكاتير البرازيليّ، الذي ارتبط اسمُه بقضايا الدفاع عن كلّ المظلومين في العالم، ولا سيّما الفلسطينيّون.

«لا يعني لي أصلي اللبنانيُّ شيئًا. جدّي كان لبنانيّاً، وأنا لا أكاد أعرفه. أنا أدعم الفلسطينيين لأنني بشريّ لا أكثر، وليس لجذوري اللبنانيّة أيُّ علاقة بذلك...» هذا ما يقوله كارلوس ببساطة، حين كنّا نمشي في أزقّة الأحياء الشعبيّة في بيروت. لا تعني له بيروتُ ذلك الحنينَ الذي يتخيّله ساسةٌ وبطاركةٌ في لبنان؛ فهو مواطنٌ برازيليٌّ بلا التباس: «أنا من الطبقة الدنيا. والدي كان ساعيًا (office boy) في مؤسّسة البُنّ الحكوميّة البرازيليّة. أمّي عملتْ صانعةً للحِرف اليدويّة، وفي تنظيف المدارس وغيرها، ومارسَتْ طوال حياتها مِهنًا بسيطة. لكنّ هذا الحيّ يذكّرني بريو دي جينيرو حيثُ وُلدتُ وعشتُ...» يشير إلى أحد أحياء البسطة، ويمشي إلى جانبي باحثًا عن آثار الحرب الأهليّة فيها، مستغربًا بقاءَ الحياة في هذه المدينة المنهكة.

سحنتُه السمراء أَربكتِ الناس: فهي «لبنانيّة» بامتياز، لكنّ لغته الإنكليزية تشي بغربيّته. أمّا الشعار الحزبيّ البرازيليّ على قميصه القطنيّ فلم يعنِ لهم أكثرَ من كونه غيرَ تابعٍ لحزبٍ لبنانيّ. فقد صار غريبًا على اللبنانيّين ـ الذين اعتادوا «دلالَ» زيارات كبار مسؤولي العالم بيوتَ زعمائهم ـ أن توجدَ أحزابٌ في مناطقَ أخرى من العالم. ولولا الكوفيّة الفلسطينيّة الملفوفة حول عنق كارلوس لما دقّق فينا أحدٌ. لكنْ، كان غريبًا أن أشعرَ في لبنان، في شوارع «بيروت الغربيّة» بالذات، بشيءٍ من التوجّس من كوفيّةٍ فلسطينيّةٍ مرفوعةٍ باعتزاز حول عنقٍ متضامنٍ؛ ذلك لأنّ فلسطين صارت عند الكثيرين من العرب تهمةً، ويحتاج المرءُ إلى جرأة ليقول البدهيّات فيها: «نعم أنا مع حقّ المقاومة بكافّة أشكالها لتحرير فلسطين، كلِّ فلسطين.» لم أكن قادرًا على مثل ذلك الجهر. لكنّ كارلوس كان أقلّ تعقيدًا:

«أُحبّ الفلسطينيّين. أُحبّهم كيفما كانوا. في البداية كان موقفي مرتبطًا بحقوق الإنسان؛ أمّا الآن فببساطة، أحبّهم. إن كانوا مصيبين، أو مخطئين، أحبُّهم. لا يهمّني أن يكون هذا موقفًا عاطفيّاً. يزعجني كثيرًا انقسامُهم، أن يقتل الأخُ أخاه. لكنْ، مع ذلك، أحبُّهم. هذا الانقسام أوجدتْه إسرائيلُ وأميركا في غير مكان؛ في العراق بين السنّة والشيعة، في فلسطين بين فتح وحماس، وعندكم هنا في لبنان. الموقف بالنسبة إليّ ليس سياسيّا... أنا أحبّهم. ربما أكون مخطئًا لكنّني لا أهتمّ، ولا أهتمّ لرأيكَ أيضًا! الفلسطينيّون مَكّتي [قِبْلتي]، بينما أنت صحفيّ يعيش في لبنان، ولا تستطيع أن تعرفَ حياتَهم.»

أنظرُ إليه. عيناه تَلْمعان مع كلّ مرّةٍ يقول فيها «أحبُّهم» فأشعرُ بتلك الغصّة التي تَسْحقني مع كلّ بيانٍ صادرٍ عن جهةٍ رسميّةٍ عربيّة. الانتماء إلى فلسطين يعطيك كلَّ الحقّ في الحبّ انطلاقًا من مفاهيم العدالة، ومعاييرِ حقوق الإنسان، والحسِّ القوميّ، والانتماءِ الدينيّ؛ كلُّ ذلك صحيح. لكنّ الانتماءَ إلى فلسطين يعني أوّلاً الحبّ، يعني الشغفَ الذي أراه في عينَيْ كارلوس القادمِ من بلاد بعيدةٍ بعيدةٍ.

* ـ النصّ يعتمد على حديثٍ مطوّلٍ أجريتُه مع كارلوس لطّوف. وما يَرِدُ بين مزدوجين هو ترجمةٌ حرفيّةٌ لأقواله.

** ـ كاتب من لبنان، ومدير تحرير مجلّة الآداب بدءًا من هذا العدد.

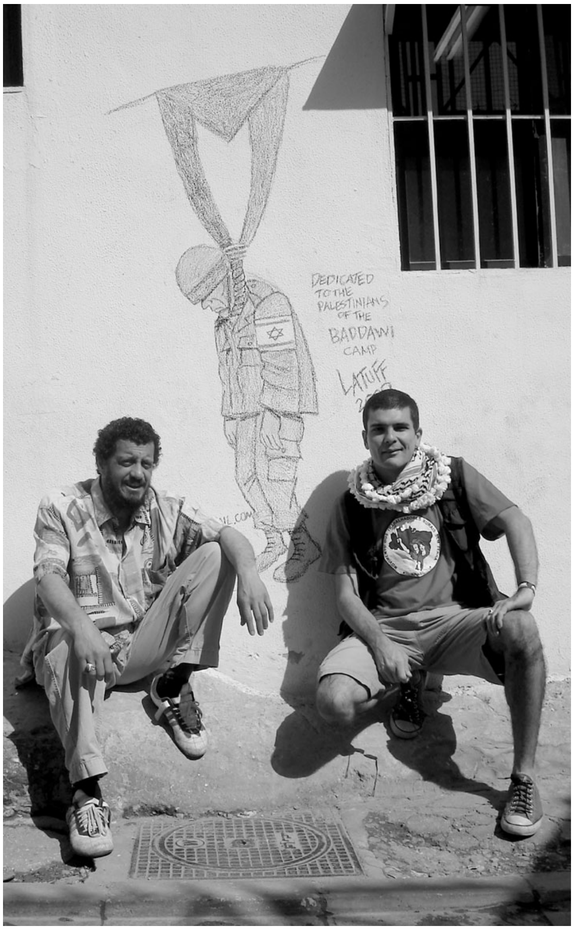

كارلوس لطّوف في مخيّم البداويّ في شمال لبنان، مع خالد اليماني، وذلك أمام رسمٍ للطّوف على جدارٍ في المخيّم.

الانتفاضة الفلسطينيّة: ثورةُ كلّ الأرض.

كيف صرنا هكذا، كيف انطفأ هذا الشغفُ، فبِتْنا نلاحقُ بتوجّسٍ الكوفيّاتِ المرفوعةَ حول الأعناق؟

أقول لكارلوس إنّه أكثرُ عروبةً منّا، فيستغرب. يُخْبرني عن علاقته بفلسطين، يُخْبرني عن القصص الأكثر حقيقيّةً من أن تُكتب:

«في أواخر عام ١٩٩٨ قرأتُ خبرًا عن فلسطينيّ أعزل أَطلق النارَ عليه مستوطنٌ، فرسمتُ احتجاجًا على هذا الموضوع، وأرسلتُ الكاريكاتير إلى كثيرين من معارفي، ومنهم منظّمةٌ غيرُ حكوميّة تعمل في رام الله. بعد ذلك رتّبَتْ هذه المنظّمةُ زيارةً لي إلى المنطقة لخمسة عشر يومًا. جلتُ في القدس ونابلس ورام الله والخليل وغيرها، وكان ذلك قبل اندلاع الانتفاضة الثانية. في الخليل زرتُ المستوطَنةَ اليهوديّةَ المحروسةَ من قِبل الجيش، وسمعتُ وجهةَ نظر أهلها: إنّهم يريدون السلام، لكنّ العرب يريدون قتلهم ويمنعونهم من الحياة التي «وعدهم» اللهُ بها. كما التقيتُ بفتاة شقراء جميلة قادمة من فلوريدا لا تصافح الرجالَ لأسبابٍ دينيّة، قالت إنّه عندما يأتي المسيحُ سيرمي اليهودُ العربَ خارج الأرض المقدّسة. وعندما حلَّ الظلامُ خرجتُ من المستوطنة، والتقيتُ بعائلةٍ فلسطينيّةٍ على الطريق. طلبتُ إليهم أن أسمِعَ روايتهم. اعتذروا لرداءة إنكليزيّتهم، لكنّهم أخذوني إلى مَنْ يجيد الإنكليزيّة. وهناك التقيتُ بإدريس.»

أثق بأنّ كارلوس أخبر هذه القصّةَ عشراتِ المرّات. لكنّه في كلّ مرّة يسردها، يعيش فيها من جديد، وتُخْلَق فلسطينُ في وجدانه حيّةً تستحقّ النضالَ. أخبرني كارلوس القصّة، سَرَدَها للمواطن العربيّ الذي لا يَبْعد كثيرًا عن فلسطين. تحدّث عن تجربةٍ غيّرتْ مسارَ حياته. تحدّث كارلوس عن إدريس الفلسطينيّ:

«رَحّب بي في منزله، ثمّ بدأ يتحدّث من دون توقّف. كنتُ فرصتَه لأنّني غريب، وهو يأمل أن أنقل القصّةَ إلى العالم. تحدّث بإنكليزيّةٍ ممتازة، ثم أخرجَ حافظةَ نقوده. قَلَبَها على الطاولة فانهمرتْ منها أشياءُ بيضاءُ أصدرتْ ضجيجًا؛ لقد كانت أسنانَه! فَلقَد فقَدَ إدريس معظمَ أسنانه بضربةٍ من عقب بندقيّة، بضربةٍ واحدةٍ فقط. وهو يحتفظ بها ليتذكّر الاحتلالَ دائمًا. بعد ذلك نادى ابنتَه، وهي في بداية سنّ المراهقة، فكشف لي ثوبَها وعرَضَ ظهرَها: كانت آثارُ حريقٍ شديدٍ تغطّي معظمَ المساحة المكشوفة من جسدها؛ فذاتَ ليلةٍ رمى

المستوطنون قنبلةَ مولوتوف من نافذة غرفتها. كنتُ أعرف صعوبةَ أن يريني أبٌ عربيٌّ جسدَ ابنته، لكنّه كان مستعداً لفعل أيّ شيء كي ينقل إليّ القصّةَ، وقد فعل! قبل خروجي من منزله وعدتُه بنقل القصّة التي لم أَسمعْ بها من قبلُ، ولا أظنُّ أنّني كنتُ سأسمع بها في ريو دي جينيرو. وأنا الآن شبهُ متفرّغٍ للقضيّة الفلسطينيّة. وكلُّ ما أقوم به إنّما هو للحفاظ على وعدي لإدريس الفلسطينيّ، وبالتالي لكلّ الفلسطينيّين.»

❖ ❖ ❖

لا تنتهي القصّةُ مع كارلوس. يمضي وقتًا يحلّلها معك، يعيد أجزاءً منها وكأنّه يريد أن يتأكّد أنّكَ تصوّرتَ المشهدَ أمام ناظريْك. يُخْبركَ عن العدالة التي لا تتحقّق إلاّ بالنضال. ولأنّنا كنّا على شفير الانتخابات النيابيّة في لبنان حينها، فقد امتلأتْ طريقُنا بصورٍ مختلفةِ الأحجام لمرشّحين مبتسمين دومًا. يسألني عنهم كارلوس، عن ماضيهم وحاضرهم. يا للمصيبة! كيف تُخبر أجنبيّاً عن مرشّحينا من أصحاب المليارات، أو من أصحاب السوابق والمجازر، ومن أصحاب المصافحاتِ الحارّةِ مع الإسرائيليين ثمّ السوريين ثم الإسرائيليين فالسوريّين مجدّدًا؟ ماذا أقول لك يا كارلوس اليساريّ حتّى النخاع؟

«سببُ يساريّتي يَشْرحه فرويد. صرتُ يساريّاً لأنّ أبي كان متسلّطًا. وكان علينا، أنا وأمّي، أن نَخضعَ لسلطته دائمًا بلا نقاش. أمّا عندما كنتُ أعترض فكان يضربني. إلى أنْ كبرتُ، فبدأتُ أقاوم سلطتَه، ووصل الأمرُ إلى الصراع الجسديّ بيننا. من هنا، لم تكن علاقتي بالسلطة جيّدةً أبدًا، لا في البيت ولا في المدرسة أو الحيّ. صرتُ يساريّاً انطلاقًا من هذا الشعور بمقاومة الظلم والتسلّط. لقد نقلتُ مقاومةَ السلطة من البيت إلى العالم.»

إذنْ، هذا الماشي إلى جانبي، كانت مشكلتُه قتلَ الأب، ومن هنا يحتاج إلى التمرّد دائمًا ليقتلَ الأب ـ السلطة. وقد عانيتُ طبعَه هذا؛ فعبثًا حاولتُ أن أثنيَه عن تصوير ملالةٍ عسكريّةٍ للجيش اللبنانيّ مركونةٍ على الرصيف بين بنايات شعبيّة. لم يقتنعْ كارلوس؛ وكان على حقّ: أيُّ منطقٍ في منع تصوير آليّات عسكريّة معروضة أمام الجميع في الشارع؟ وانتهى الجدالُ بصورتين التقطهما عنوةً تحت أنظار جنديٍّ ملول. تابعنا سيرَنا، وكنتُ مشغولاً بنفسي أكثرَ من زائري: لماذا جَبُنْتُ عن التفكير والمحاججة؟ وكيف يُبقي كارلوس جذوتَه متوقّدةً؟

«الغضب... عندي الكثيرُ منه. أغذّيه، ومن ثمّ أعكسُه في رسومي. أضعُه في خدمة قضيّة سياسيّة أو اجتماعيّة. أعكسُه طاقةً لي تبقيني فاعلاً. لكنّني سأكون أكثرَ من سعيد لخسارته. حين أَخْسر غضبي، فذلك سيعني أنّه لم يعدْ في هذا العالم ما يستحقّ منّي أن أغضب. أتعرف معنى هذا؟»

ماكدونالدز: الحرب بزنس!

كاتربيلر تَسْحق فلسطين (رسم للطّوف ينتقد إجرامَ شركة كاتربيلر).

الكلّ يهلّل لـ «الدولة الفلسطينيّة» المسخ... باستثناء شعبها!

نعم، أعرفُ معنى أن يتوقّف عن غضبه الأزليّ: فهذا يعني أن يَسُودَ العدلُ في العالم بلا استثناءات. وهذا ليس أكثرَ من حلمٍ متطرّفٍ لهذا الطفل الكبير الوحيد، الذي عاش في الأحياء الفقيرة وحده:

«كنتُ الولدَ الوحيدَ الذي بقي على قيد الحياة من أصل ثلاثة. أخي وأختي ماتا بعد الولادة مباشرةً. وحدتي أثّرتْ في حياتي؛ كنتُ خجولاً لا أعرف إلاّ قلّةً من الأصدقاء. كنتُ أُمضي معظمَ الوقت مشاهدًا أفلامَ كارتون هانا باربارة الأميركيّة. وكنتُ أقضي وقتي في الرسم؛ أرسمُ في كلّ مكان؛ على علب الأدوية الفارغة؛ أقلب الكرتونةَ وأرسم. لا شيء مثيرًا في حياتي.»

لم يُخْفِ كارلوس تبرّمَه من أسئلتي عن حياته الشخصيّة، بل اعتبَر أنّنا نبتعد عن قضيّة عمره، وقضيّةِ الإنسانيّة التي نَذَرَ نفسَه لها. حاولتُ أن أُفهمه أنّني أحاول إخراجَه من الصورة النمطيّة التي قد نضعه ـ نحن الجمهورَ العربيَّ ـ فيها: صورةِ الفنّان «الغربيّ» المتبنّي لقضايانا. أخبرتُه أنّني أريد للناس هنا أن يَعْرفوا خصوصيّاتِ مَنْ يقف معهم، حتّى لا يقعوا في ورطة قبول أيّ شخصٍ يقف ضدّ إسرائيل؛ فلسنا في حاجة إلى دعم من نازيّ أوروبيّ جديد ما زالت عنده عقدُ العنصريّة. ومن هنا عَبّرتُ له عن رفضي لقبولهِ المشاركةَ في مسابقة الكاريكاتير التي نظّمها الإيرانيّون، وكان موضوعَها الهولوكوست.

«لستُ معنيّاً بقضيّة معاداة الساميّة، ولستُ مسؤولاً عن أنّ الجيش الإسرائيليّ يَستخدم نجمةَ داود الدينيّة شعارًا له. وكلّما شبّهتُ الجنديَّ الإسرائيليَّ بالعسكريّ النازيّ تقوم القيامة: 'لطّوف معادٍ للساميّة، لطّوف ضدّ اليهود'. بالطبع هذا لا يوقفني، بل سأواصل هذه المقارنة حتّى يتوقّفوا **هُمْ** عن التشبّه بالنازيّين. وإذا كان الموضوعُ الدينيّ يزعجهم، فلينزعوا هذا الشعارَ الدينيَّ عن أسلحتهم التي يَقتلون بها الأطفال! أمّا من جهتي، فإنّ صراخهم لن يوقفني، لأنّني لا أرى أنّ مشكلة فلسطين هي مع اليهود، وإنّما هي قضيّةُ جغرافيا سياسيّة. كانت المسابقة ردَّ فعلٍ على الرسوم المسيئة للإسلام، وهي رسومٌ دافعَتْ عنها كلُّ أوروبا بحجّة حريّة التعبير. حسنًا، أنا وجدتُ المسابقة مناسبةً للتعبير عن الهولوكوست الجديد ضدّ الفلسطينيّين، وعن المعايير المزدوجة في الغرب ضدّ العرب والمسلمين؛ فأوروبا لا تَحترم أيَّ شيءٍ مرتبطٍ بالإسلام، لكنّها تحترم كلَّ شيءٍ يهوديّ، وتَمنع مجرّدَ الحديث فيه. أنا لم أشاركْ في المسابقة الإيرانيّة لأُنكرَ الهولوكوست؛ فهذا ليس موضوعًا للنقاش كما يقول صديقي نورمان.* والهولوكوست مرتبطةٌ بتاريخ طويلٍ من إساءة معاملة اليهود في أوروبا، إلاّ أنّها مجزرةٌ أخرى بالنسبة إليّ، تُضاف إلى الكثير من المجازر التي ارتُكبتْ في التاريخ. ما نَاقشتُه هو، بالتحديد، التلاعبُ بالهولوكوست لخدمة

* ـ نورمان فنكلستين: كاتب وناشط يساريّ، وكتابُه المشار إليه هو: **صناعة الهولوكوست** (بيروت: دار الآداب، ٢٠٠١، ترجمة سماح إدريس وأيمن حنّا حدّاد).

الصهاينة؛ وهذا ما أوضحه نورمان في كتابه، **صناعة الهولوكوست**. اشرحْ لي ما معنى عشرات الأفلام الهوليووديّة عن الهولوكوست؟ لقد قَتَلَ النازيّون عشرين مليونًا من مواطني الاتّحاد السوڤييتيّ، لكنّني لا أرى أفلامًا بهذا الخصوص!»

❖❖❖

كنّا قد تخطّينا الأزقّةَ الشعبيّةَ في مشيتنا، ووصلنا إلى مدخل وسط المدينة المحميّ بعشرات العساكر. حدّق في كوفيّة كارلوس جنديٌّ مدجَّجٌ بالسلاح، وكأنّه يفكّر إنْ كانت ستهزّ «رقيَّ» الوسط التجاريّ. وأنقذتْنا اللغةُ الإنكليزيّةُ من جديد، ويا لَلْمفارقة: فالتعاطف العلنيُّ مع الفلسطينيّين مسموحٌ للغربيّين وحدهم!

لم يكن كارلوس مرتاحًا على مقعد المقهى الفخم؛ فقد استهوتْه الأزقّةُ الشعبيّةُ بأطفالها، وصراخ باعتها، ولامبالاةِ الناس المتراخين على الشرفات. لطّوف لم يحبَّ الوسطَ التجاريّ الذي تَعدُّه دولتُنا مفخرتَها، وشَعَرَ أنْ لا حياةَ فيه. وربّما كان السبب أنّ هدفَ زيارته الأساس هو الذهابُ إلى مخيّم البدّاوي للاّجئين الفلسطينيّين في الشمال اللبنانيّ، وكان قد أمضى ليلتَه هناك: يلعب مع أطفال المخيّم، ويَرسم على جدرانه، ويُجمّع الحكايا التي سينقلها إلى العالم:

«الجبنُ المسيطرُ على العالم يَصْدمني. كنتُ في فلسطين ورأيتُ ما يحدث. الأمرُ هناك ليس مثلَ زيارة بلدٍ وإجراءِ حديثٍ وِدّي. في فلسطين هناك ما هو أكثر: أن تَشْعر بالشيء **نفسه** مثلَهم، أن يعتريكَ الخوفُ، ويسيطرَ عليك القلق. عندما رأيتُ الناس يُقْتلون في غزّة، وتحادثتُ مع صديقتي ليلى فوَصَفَتْ لي الرعبَ المسيطر، شَعرتُ بالأذى لأنّني أرى من بعيد. كان يجب أن أكونَ معهم! وكلّما كنتُ في مخيّمٍ، أشعر وكأنّني في البيت.»

❖❖❖

سيعود كارلوس إلى شقّته الصغيرة في ريو دي جينيرو، وهي الوحيدة التي يَقْدر على تحمّل تكاليفها. وسيكون وحدَه في الشقّة، كما كان وحدَه في طفولته. وسيكون الإنترنتُ نافذتَه على العالم، يتابع عبرَه أخبارَ فلسطينه، وأخبارَ الساسة العالميّين الذين لا يثق بهم. وربّما يتابع أخبارَ انتخاباتنا بقرف، لأنّه لا يعرف معنى «الديمقراطيّة.» وهو يخاف من رأي الأكثريّة التي أوصلتْ هتلر إلى السلطة.

لكنْ، بمَن تثق يا لطّوف؟

«لا أستطيع الوثوقَ بأيّ قائدٍ أو سياسيّ. أثقُ بالناس الذين يتظاهرون ويخاطرون من أجل أحلامهم بالعدالة. أثق برايْتشِلْ كوري التي تَركتْ حياةً سهلةً في أميركا لتموت تحت جنازير الجرّافة الإسرائيليّة/الأميركيّة [كاتربيلر] في رفح. أثق بالفلسطينيّين، وأتمنّى أن أكون مفيدًا لهم. إنّهم أحدُ أسباب استمراري في الرسم. لكنّني كنتُ أتمنّى لو أنّ رسومي تُوقف الرصاصَ عنهم وتحميهم.»

❖❖❖

كان الناس يتوافدون إلى المقاهي التي تملأ الوسطَ التجاريّ، والأولاد يملأون الساحةَ بضجيجهم الفرِح. كارلوس يحدّق في المشهد، وفي باله كلُّ أحلام اليساريّ العنيد: في العدالة، والاستشفاء، والكرامة. وكنتُ أحدّق في كارلوس، وأغرق في الأسئلة التي تتأكّلني:

كيف تصير فلسطينُ قِبْلَتَه، في حين نَبْعد نحنُ عنها كأنّها إنفلونزا موبوءة؟ كيف يتحدّى شظفَ العيش ليحافظ على مبدئيّته، في حين نَغْرق نحن في ديون استهلاكيّة لا تترك لنا سلطانًا على حياتنا؟ لماذا لم يبقَ جَدُّك في لبنان، أو لم يهاجرْ إلى الخليج بحثًا عن المال الأسود، فتنشأَ بيننا، وتكونَ مثلَنا... فنرتاح؟

بيروت

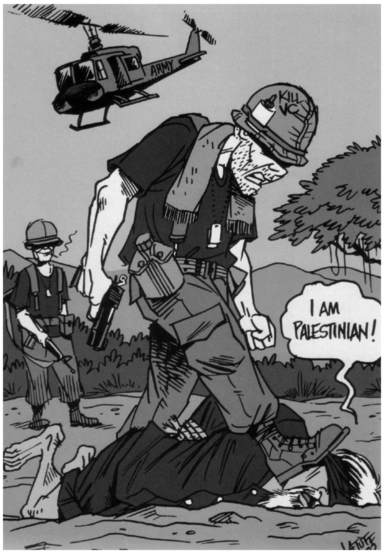

مظلومو العالمِ كلُّهم: فلسطينيّون!